- ٢ -

الدعوة

كانت طفولة محمد كما رأينا طفولة سعيدة رغم ما فيها من أحزان لفقد أعز الناس لديه .. توفى أبوه وهو فى بطن أمه، وتوفيت أمه وهو فى السادسة من عمره، وجده وهو فى الثامنة من عمره .. حتى أنه ورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام:

- «لقد ولدت والحزن رفيقى» ..

ورغم أحزان النبى الكريم.. فقد كان يتسم بصفات رائعة..الخلق الكريم.. والشجاعة.. الأمانة.. وسماه أهل مكة بالأمين.. كما كان راجح العقل، عفيفا..

وفى طفولته اشتغل برعى الأغنام، ثم ذهب إلى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره مع عمه، وفى المرة الثانية ذهب إليها وكان فى الرابعة والعشرين من عمره.. أمانته على كل لسان.. وعفته وطهارته ليست موضع شك من أحد، وتاجر فى مال السيدة خديجة، عندما عرفت فيه نبله وأخلاقه وشخصيته، وفى الخامسة والعشرين من عمره تزوج من السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد.. لقد أعجبت به لما كان عليه من سمات خلقية ممتازة، وهى من بنى زهرة.. وكانت فى نحو الأربعين من عمرها.. لقد عاد محمد إليها بأرباح كثيرة بعد أن باع ما معه من بضائع حملها معه من مكة..واشترى بأثمانها بضائع من الشام.. وكان من العادة أن يأخذ التجار ما يؤتى من الشام للتجارة فى اليمن.. لقد أرسلت خديجة إليه من يعرض عليه أن يتزوجها واختارت لهذه المهمة نفيسة بنت منية..

ودار حوار بين نفيسة وبين محمد عليه الصلاة والسلام وقالت له: ما يمنعك من أن تتزوج؟.

obeikandl.com

قال لها: ما بيدى ما أتزوج به..

- فإن كفيتك ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة.. ألا تجيب؟

- من هى؟

- خديجة..

- وكيف لى بذلك؟

وذهبت نفيسة إلى خديجة بردود محمد عليها، فأرسلت إليه لمقابلته، وقالت له:

- يا ابن عم قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك (مكانك فى قومك) وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك..

وذهب الأمين إلى عمه يحدثه عن رغبته فى السيدة خديجة، ووافق أبو طالب وخطبها لابن أخيه، وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية من الذهب ونصف أوقية..

وبهذا الزواج عاش محمد بعيدا عن الفاقة.. يتاجر لها فى مالها.. ولا ينسى أبدا تفكيره الدائم، وتأمله الطويل.. ولا نزل إلى سفاسف الأمور.. ولا تغيرت مسيرة حياته.. بل ظل محمد الإنسان المتواضع.. الذى يلين قلبه أمام الضعف الإنسانى.. ويحيا حياة بسيطة هادئة بعيدة عن اللهو أو العبث.. وعرفته مكة بعد الزواج كما عرفته قبل الزواج.. الإنسان الذى يعيش للناس.. ويعيش بينهم أمينا وقورا.. محبوبا من الجميع.

وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره عندما عزمت مكة على إعادة بناء الكعبة. وكانت قد اتفقت أن يكون بناؤها من مال حلال، ولا يدخل فيه ربا ولا مهر بغى ولا أى مال حرام.. وعندما وصل البناء إلى مكان الحجر الأسود اختلفت القبائل أيها يكون له شرف وضع الحجر مكانه.. وكادت

تنشب الحرب، لولا أن أشار أحد عقلائهم أن يحكموا أول داخل لبيت الله الحرام، وكان الداخل هو الشاب الأمين محمد بن عبد الله، فارتضوه حكما.. وأشار عليهم أن يحضروا ثوبا وأن يضع الحجر فوق الثوب، وأن تحمل كل قبيلة من طرف، ثم أخذ الحجر ووضعه مكانه، وهكذا استطاع محمد بن عبد الله، أن يوقف مجزرة دموية كان يمكن أن تحدث بين قبائل مكة وعشائرها لولا حكمته ورجاحة عقله..

كان محمد عليه الصلاة والسلام ناضجا.. وقد عرفته مكة عزوفا عن كل ما يمس الشرف والقيم النبيلة، دائم التفكير، كثير التأمل، ما عبد صنما.. ولا قدسه، ولا حلف بآلهة مكة فى يوم من الأيام ولكنه كان يريد أن يعبد الله على دين إبراهيم، وكان الأمد بعيداً بين عصر إبراهيم وعصر محمد عليه الصلاة والسلام.. كان يتجه إلى الله بنظراته.. أما كيف كان يعبد الله على دين إبراهيم.. فلم يكن أحد يعرف ذلك على وجه الدقة، ومن هنا فقد فهم المستشرقون ـ خطئاً ـ قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٦، ٧].

فقالوا إن محمدا كان ضالا فى عبادته.. وهذا فهم خاطىء بالطبع.. فلم يكن ضالا بمعنى يخالف القيم الأخلاقية، ولكن كان يريد أن يهتدى بالفطرة على دين إبراهيم، حيث يعبد الله حق عبادته، عبادة معرفة، ولكن هذه المعرفة جاءت عندما جاءه وحى السماء:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومما ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام قوله. وهو يصور أشواقه للمعرفة. لأن المعرفة هى لب العبادة فقال:

«المعرفة رأس مالى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة بالله كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا

غنيمتى، والعجز فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خلتى، وقرة عينى فى الصلاة»..

لقد أخذ النبى يتعبد فى غار حراء.. قبيل البعثة.. وكان دائم التفكير.. فكانت هذه الفترة فترة إعداد له لتلقى الرسالة العظمى، وكانت البداية الرؤيا الصالحة.. وقد عبر عن ذلك بقوله:

«إن أول الوحى كان بالرؤيا الصادقة..»

فكانت دائما تتحقق رؤياه، وعن طريق هذه الرؤى الصادقة، شفت روحه.. وانطلقت هائمة فى رحاب الكون.. باحثة عن روح الوجود.. عن خالق الوجود.. وعندما وصلت الشفافية إلى ذروتها.. وهو يتأمل فى غار حراء.. وكانت نزول أول آيات القرآن الكريم.. نزل بها إليه الروح الأمين جبريل عليه السلام..

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وبدأت الرسالة العظمى.. على يد محمد بن عبد الله.. ذلك الإنسان الودود.. المتناسق الجسم، الجميل الوجه، والذى كان لتكامل صورته أثر كبير فى نشر دعوته.. ولنقف عند هذا الرجل الذى سمع بدعوة الرسول الكريم.. وعندما شاهده.. ورأى فيه الجلال والمهابة.. وإشراقة الوجه.. ودار بينهما هذا الحوار السريع..

- من أنت؟

- محمد بن عبد الله.

- أنت الذى تقول عنه قريش انه كذاب؟..

- نعم.

- ليس هذا بوجه كذاب.. ما الذى تدعو إليه؟

- الإسلام.

وما كاد الرجل يعرف من النبى مبادئ الإسلام حتى دخل الإيمان إلى قلبه.. وأعلن إسلامه.

- ولنقف عند وصفه عليه السلام.. حتى تقترب معالم الصورة إلى الأذهان.. ومن أشهر من وصفوه عليه الصلاة والسلام أم معبد التى مر بها الرسول الكريم مع الصديق وعامر بن فهيرة، ودليلهم عبد الله بن أريقط، وهم فى طريقهم إلى يثرب وقالت:

«رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبه ثلجة، ولم تزر به صلعة، قسيم وسيم، فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل، أزج.. أقرن، فى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار.. وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل لا نذر ولا هذر.. كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن. أبهى الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب.. ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدا، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند»..

وهذا الوصف بلغة العصر.. إنه كان جميلا، وكان مشرق الوجه. متناسقا فى تكوينه الجسمانى، كانت حبة عينيه شديدة السواد.. طويلة الرموش، وفى صوته بحة تجعل صوته ينفذ إلى أعماق السامع، يحبه من حوله رغم أنه لا يستعلى على أحد، وأنه كان شديد الجاذبية، آسرا للقلوب عندما يتحدث..

وكل هذه مقومات الداعية العظيم، الذى جاء على فترة من الرسل.. ليضىء للحياة مسالكها المظلمة، ويعيد إليها وعيها المفقود..

بدأت الدعوة.. وكان التساؤل إلى من يدعو النبى أولا.. وكان الأمر الإلهى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤ – ٢١٧].

وكان أول من اتبعه زوجته الوفية خديجة بنت خويلد.. ورأى علىّ بن أبى طالب وكان صبيا ذات يوم ابن عمه العظيم يصلى ومن خلفه خديجة وارتسمت فى ذهنه علامات استفهام كبيرة، ما الذى يشاهده.. وسأل ابن عمه العظيم عما يفعلان. وفهم منه انه يقيم الصلاة؟ أى صلاة..؟

علمه محمد الصلاة، وطلب منه أن يسلم، ولكن بعد أن يشاور والده أبا طالب.. وأفهمه حقيقة الإسلام، والدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له.

وفكر الصبى المتقد الذكاء كثيرا.. ثم جاء إلى النبى يعلن إسلامه وهو يقول له:

– لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله.

وكان علىّ أول صبى يدخل الإسلام..

وتبعه صديق النبى الكريم أبو بكر بن أبى قحافة التيمى. وبإسلام أبى بكر، دخل الإسلام على يده عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وفاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، وابنتا أبى بكر أسماء وعائشة.

.. و.. بدأت الدعوة تأخذ طريقها.. ووقف النبى الكريم الذى ما عرفت عنه قريشا كذبا ولا ادعاء، يدعو إلى الإسلام، صعد جبل الصفا.. والتف حوله أهل مكة، يريدون أن يعرفوا ماذا يريد الأمين أن يتحدث به، ولكن يا هول ما سمعوا على آذانهم.. إنها دعوة جديدة.. دعوة تسفه عقيدة

الآباء والأجداد.. ترميهم بالجهل والغباء.. تصفهم بأنهم لا يقدرون الأمور.. ولا يعرفون نور الله.. أذلتهم عبادة حجارة صماء بكماء..

.. يا لهول ما سمعوا.. إنهم يريدون الحياة، أسيادا فى مكة.. البيت الحرام يضيف إلى مكانتهم بين القبائل بعدا عظيما، وهم أهل تجارة، يريدون الحفاظ على مكاسبهم وعلى احترام القبائل لهم.. إنهم إن كانوا يعظمون البيت الحرام فهذا التعظيم متوارث من أيام خليل الرحمن، أما تسفيه أحلامهم.. والدعوة إلى ترك كل ما ترك الآباء والأجداد من معتقدات. والاتجاه إلى عبادة الله الواحد الأحد. فشىء لم يألفوه ولم يفهموه.. فإدراكهم لا يصل إلى هذا المستوى الرفيع من التجريد، إن الله خالق واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد..

استمعوا إليه وهو يقول:

- يا معشر قريش.. هل عرفتم عنى كذبا أو بهتانا..

- ما عرفنا عنك كذبا ولا بهتانا..

- إذن اسمعونى.. لو قلت لكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى؟

- بلى..

- إذن فاسمعوا جميعا، فإنى نذير لكم.. يابنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف.. يا بنى زهرة.. يا بنى مخزوم.. يا بنى تميم.. يا بنى أسد..

لقد أمرنى الله ربى وربكم أن أنذركم فأنتم عشيرتى الأقربون، وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تشهدوا معى أن لا إله إلا الله..

ولم يكد يتم النبى خطابه حتى أصابهم الدوار.. لقد زلزلوا زلزالا شديدا.. ضاقت بهم الأرض بما رحبت..

رسالة رسول..

والرسول من بنى هاشم..

ماذا يريد محمد من تسفيه أحلامهم؟.. ودعوتهم إلى دين جديد..

هل يريد الرئاسة عليهم..

ويجيبه أقرب الناس إليه.. عمه أو لهب.. وسط صدمة المجتمع المكى..

- ويلك.. ألهذا دعوتنا..

وانقلب المجتمع الهادئ.. إلى مجتمع ثائر.. إن ما حدث ليس شيئا سهلا.. ولا هينا.. لطالما شهد هذا المجتمع بعض الناس الذين تحنفوا.. أو الذين تنصروا.. ولكن دعوتهم لم تتجاوز حدود أنفسهم.. لم تكن دعوة عامة.. ولكنها كانت اعتقادا شخصيا كما أن أى واحد من هؤلاء الدعاة لم يكن له شخصية محمد، ولا بلاغة محمد وفصاحته.. ولا مركزه الاجتماعى كرجل من أعز بيوتات قريش.. و.. لم يجاهر أحد منهم أنه جاء بأخبار السماء..

قامت عاصفة عاتية فى مكة.. وتسامع الناس بما جرى وشعر الكل بأن أحداثا بالغة الخطورة سوف تحدث.. فمحمد فى قمة النضج الفكرى.. وليس بالإنسان الذى يلين بسهولة.. ويرتد عما يدعو إليه.. ثم انه يقول أنه ينزل عليه قرآن.. فيجتمعون.. وليحاولوا أن يحولوا بين محمد وبين نشر رسالته.. وليحاولوا أن يعيبوا عليه رسالته.. ولكنهم يقفون عاجزين أمام بلاغة ما ينزل عليه من وحى..

إنهم يتساءلون.. هل يمكن أن يكون هناك عالم آخر؟.. وهل الإنسان الذى يتحول إلى رماد يمكن أن يعود كما كان.. و.. يأتيهم وحى السماء..

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٩ – ٥٧].

وبدأ الجهاد العظيم فى سبيل الدعوة.. فالأمر ليس سهلا.. ولا هينا.. إن قريشا أصابها الزلزال.. فإذا بهم يفقدون توازنهم.. وإذا بمحمد الذى كانوا يطلقون عليه الأمين لصدقه وعفته وطهارته.. أصبحوا يسخرون منه عليه السلام.. ويقولون عنه:

– هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء..

وظنوا بذلك إنهم سيرجعون النبى عما ينادى به، وأنه سيضعف لسخريتهم،.. ولكنه كان صلب العود، قوى العزيمة، وقد رد القرآن الكريم سخريتهم إلى نحورهم وهو يسخر من جهالتهم وعبادتهم لأوثان لا تنفع ولا تضر:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

وأخذت قريش تعذب من أسلم مع النبى، ولم يسلم من أذاهم أبو بكر الصديق وهو من هو من المكانة فى أهله، فقد حاولوا خنقه ذات مرة وهو يقرأ القرآن فى بيت الله الحرام.. وعذب الحكم بن العاص ابن أخيه عثمان ابن عفان، كذلك هددت أم سعد بن أبى وقاص ابنها بالصيام حتى الموت أو ترك دين محمد.. ولكن هؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالدعوة، وتغلغلت إلى أعماق نفوسهم، ولم يرهبهم الوعد أو الوعيد.. وظلوا بجانب النبى يتحملون ما يتحملون مهما كانت الصعوبات.. فقد عرفوا طعم الإيمان، وروعة اليقين.. وكان من الصعب عليهم العودة إلى الكفر..

وإذا كان كفار قريش فعلوا هذا فى سادات قريش، فقد كان انتقامهم من الفقراء والمستضعفين يفوق حد التصور.. ولقد عذب عمار بن ياسر، ووالده عذابا بالغ القسوة.. فقد أحرق أبو جهل دارهم، وأغرى بهذه الأسرة المؤمنة سفهائهم.. فإذا بهم يلقون عليهم أشد ألوان العذاب.. كالضرب بالسياط، والكى بالنار، وجرهم بالسلاسل فوق رمال الصحراء المحرقة، ويمر بهم رسول الله ذات يوم، ويبلغ به التأثرمداه، ويقول لهم:

«صبرا آل ياسر وأبشروا فإن موعدكم الجنة».

وترتفع معنويات هذه الأسرة إلى الذروة وهم يرون الرسول العظيم ويقول ياسر للرسول:

- الدهر هكذا يا رسول الله..

- وهو يقصد بذلك أنه سيظل على دينه أبد الدهر.. ما دام فيه قلب ينبض بالحياة.. واستشهدت سمية، وكانت أول شهيدة فى الإسلام، واستشهد ياسر، وكان أول شهيد فى الإسلام، وظل عمار يتحمل الأذى، حتى أرغموه أن يذكر آلهتهم بخير.. ففعل تحت قسوة العذاب، وهون عليه الرسول الأمر لأن قلبه ملىء بالإيمان، ونزل فيه قوله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وظل عمار يفتح له الإيمان طريقا لتحمل العذاب، وهاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة ليكون واحدا من الرعيل الأول فى الإسلام... وعذب بلال بن أبى رباح عذابا بالغ العنف، فكانت توضع الأحجار على بطنه العارى على رمال الصحراء.. وكان عزاؤه أنه يردد بكل الإيمان..

- أحد.. أحد.. أحد.. أحد..

ولم يرحمه سيده أمية بن خلف، إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه..

ووسط كل هذه الآلام كان النبى العظيم لا يشك طرفة عين بأن دين الله سوف ينتصر.. وترتفع راياته، وهو الذى قال (لخباب بن الأرت) الذى عذبته قريش، حتى ظهر أثر العذاب على جسده، وطلب من الرسول أن يدعو الله ليخفف عنهم العذاب.. قال الرسول العظيم:

- انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم، فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه.. والله ليظهرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء باليمن إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه..

يا لعظمة الرسول الكريم.. كل هذا الإيمان لا يزعزعه قيد شعرة ما يراه من اضطهاد وتعذيب فاق كل تصور وخيال لاتباعه.. أيكون غريبا بعد ذلك أن يقول النبى العظيم كلمته الرائعة، يوم حاولت قريش وقد أعيتها كل الحيل أن يرجع محمد عن طريقه وأن تعرض عليه الملك والجاه والمال، وأن يسكت عما ينادى به، ليقول لعمه:

- «والله يا عماه.. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

تحمل ما يفوق طاقة البشر.. ولم يجد عمه أمام هذه الإرادة إلا أن يشجع ابن أخيه على دعوته وهو يطمئنه أنه سيقف بجانبه، ولا يسلمه لهم..

.. وأخذت قريش تتحدى النبى أن يأتى بمعجزات، وهو يقول لهم إنما هو بشر رسول، ومعجزته هى القرآن الكريم.. ويصور القرآن الكريم بكلامه المعجز هذا الموقف بقوله:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي

السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وأخذت الدعوة تشق طريقها إلى القلوب، ولكن ببطء، ويدخل الإسلام عدد من الأقوياء الذين تهابهم مكة كحمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، ويشتد ساعد الإسلام بإسلامهما، لكن قريشا تعاود عنفوانها وجبروتها.. ويتسرب منها أخبار الدين الجديد إلى خارج مكة.. إلى قبائل كثيرة من المحيطين بها، أو الذين يأتون إلى مكة للتجارة أو الحج، ويؤمن البعض بما جاء به النبى الخاتم.. كأبى ذر الغفارى الذى جاء من قبيلة غفار، وقد أعلن إسلامه.. وتعرض للضرب المبرح من مشركى مكة، ولم ينقذه إلا العباس عم النبى ﷺ من أيديهم، وينفد صبر مكة أمام قوة المؤمنين، وتمسكهم بدينهم.. وعمق إيمانهم.. وقد قررت مكة أن تتخذ قرارا خطيرا، فيه قطع للرحم، وظلم ذوى القربى،عندما قرروا مقاطعة المؤمنين.. وحصارهم فى شعب أبى طالب لا يتزوجون منهم، ولا يتاجرون معهم، ويقاطعونهم مقاطعة كاملة وكتبوا بذلك صحيفة ظالمة.. ولقد طال الحصار لمدة ثلاث سنوات إلى أن رق لحالهم بعض رجال مكة، واتفق خمسة منهم أن يقوموا بنقض الصحيفة، وكان هؤلاء الخمسة هم: هشام بن عمرو.. وزهير ابن أمية.. والمطعم ابن عدى.. وزمعة بن الأسود.. وأبو البخترى ابن هشام.. والذين قاموا فى الكعبة يدعون الناس إلى فض الصحيفة الظالمة، وتصدى لهم أبو جهل.. ولكن الأغلبية كانت بجانب الأصوات التى تقف مع هؤلاء الخمسة، والذين رقت قلوبهم لبنى هاشم وبنى عبد المطلب، ووافقوا على نقض هذه الصحيفة.. وكان النبى قد قال أن الأرضة قد أكلت ما فى هذه الصحيفة من جور.. ولم يبق فيها إلا اسم الله..

وعندما فضوا الصحيفة.. وجدوا أن ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام كان شيئا أكيداً.. ولكنهم بدل أن يرضخوا للحقيقة، قالوا ما عرف محمد ذلك إلا لأنه ساحر..

فى بلاد غريبة

وكان النبى قبل الحصار.. قد أمر أصحابه بالهجرة للحبشة.. وكان قد سبق أن هاجر بعض المسلمين.. فهاجر عدد منهم قدر بنحو ثلاثة وثمانين رجلا، وثمانى عشرة امرأة.. وكان من بين هؤلاء جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس، وعبد الله بن مسعود، والمقداد بن عمرو.. وعبد الله بن جحش وزوجته أم حبيبة.. والتلقى المسلمون فى الحبشة من هاجر من قبل المهاجرين الجدد.. وعاشوا هناك فى أمان فى ظل (أصحمه) نجاشى الحبشة.. وكان هذا الملك يدين بالمسيحية.. وكأن قريشا أبت أحقادها ألا تترك هؤلاء الذين تركوا بلادهم إلى بلاد غريبة، فراراً بدينهم من بطشهم وجبروتهم.. ولم تكتف مكة أيضا بما تفعله بأفلاذ أكبادها من تنكيل وتعذيب وإرهاب.. فأرادت أيضا أن تذهب وراء المسلمين أينما ذهبوا..

فأرسلت بعمرو بن العاص.. وعبد الله بن أبى ربيعة، ومعهم هدايا لنجاشى الحبشة وحاشيته، حتى يطردهم من دياره. ويعودوا مرة أخرى إلى مكة لتستبد بهم.. وتسومهم سوء العذاب.. وحاول الرجلان إغراء النجاشى بالمسلمين، ولكن الرجل أبت مروءته ألا يصدر حكما دون أن يسمع دفاع المسلمين على إدعاءات رسل مكة.. ووقف جعفر بن أبى طالب يتحدث بلسان المسلمين فقال:

- «يا أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى بالفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويظلم القوى منا الضعيف، فكلنا على ذلك حتى بعث الله رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه. وأمانته وعفته فدعانا إلى عبادة إله واحد، وأن نخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من أحجار وأصنام وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم،

وحسن الجوار.. والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم.. وأمرنا بالصلاة والصيام، فآمنا به،واتبعناه، فعدا علينا قومنا فعذبونا ليردونا عن ديننا إلى عبادتهم، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى ديارك، واخترناك على من سواك. ورغبنا فى جوارك. ورجونا ألا نظلم عندك..».

وطلب النجاشى منه - وهو يستمع إلى تلك الكلمات الواضحة من جعفر ويرى من خلالها القيم النبيلة التى انطوت عليها رسالة محمد ﷺ. وكأنه يريد أن يستمتع أكثر بما فى هذه الرسالة من قيم بالغة السمو - أن يقرأ شيئا مما جاء فى الكتاب الذى أتى به محمد.. فأخذ جعفر يقرأ له قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وأطرق النجاشى صامتا وهو يستمع إلى تلك الآيات من سورة الأنعام.. وقال لمن حوله:

- «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»..

وقال لعمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة:

- «انطلقا إلى قومكما فو الله لا أسلمهم لكم أبدا»..

ويبدو أن عمرو بن العاص المعروف بمكره ودهائه، قد شق على نفسه أن يعود إلى مكة يجر أذيال الفشل، وأن دهاءه قد عجز أمام بيان جعفر الصادق وصدقه.. فأراد أن يوقع بين النجاشى والمسلمين، فقال له وهو يعلم حرص النجاشى على دينه: إنهم يقولون فى المسيح قولا فظيعاً.. وهنا سأل النجاشى جعفر رأى الإسلام فى عيسى.. فقال جعفر:

- «نقول فيه أيها الملك ما قاله الله بشأنه، وما قاله نبينا.. فهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، خلقه بكلمة كن، فكان من غير أب ليكون آية للناس»..

وقرأ قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ منكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ به مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا من تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ١٦ - ٢٦].

وهذه الآيات من سورة مريم.. استمع إليها النجاشى فهزته من الأعماق وأمر ألا يتعرض أحد للمسلمين المهاجرين بسوء.

وهكذا امتحن المسلمون فى الحبشة كما امتحن المسلمون فى مكة فى حصارهم فى الشعب.. إلى أن عاد إلى قريش بعض وعيها، فنقضت يدها من هذا الحلف الظالم.

عام الحزن

فى بيت خديجة عرف النبى الكريم الحب والرحمة والمؤازرة . . فى هذا البيت الطاهر . . عرف محمد الأمن والأمان، وزوجته تشاركه حياته وتقف إلى جانبه وهو يواجه بطش مكة وجبروتها . . اختارته ورضيت به زوجا . . وعاشت معه أجمل أيام الحياة . . وجاءته الرسالة فكانت أول من آمنت به . . ورأته وهو يأتى من غار حراء مرتجفا . . بعد أن رأى جبريل، ونزلت عليه آيات القرآن الكريم فقالت له تطمئنه:

. . «والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر».

وتأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . . الذى يسمع من الرسول ما يسمع ويطمئنه بأن الذى نزل عليه هو جبريل الذى نزل من قبل على الأنبياء . .

وفى هذا البيت الطاهر رزقه الله الأولاد . . القاسم، وبناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ثم ولدت له بعد البعثة ولده عبد الله . .

فى هذا البيت عرف النبى طعم السكينة والمودة والرحمة . .

هذه السيدة العظيمة التى دفعت بكل ما تملك من إرادة وثروة بجانب الرسول الأعظم . . وأنفقت معظم أموالها على المسلمين أثناء الحصار . . مرضت بعد أن فك الحصار ثم انتقلت إلى أكرم جوار . . فكان حزن النبى عليها عظيما، وكانت عندما تذكر يقول:

- «لقد آمنت بى إذ كفر بى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله عز وجل منها الولد، ولم يرزقنى من غيرها من النساء» . .

وكم كانت سعادة النبى عندما تجئ لزيارته واحدة من صديقاتها.. كان يرحب بها .. ويقول:

- كانت تزورنا أيام خديجة ..

أيام خديجة من أجمل أيام الرسول .. وها هو الرسول قد فقد الزوجة والأخت والأم..

وتمضى الأيام .. ويسمع الرسول بمرض عمه أبى طالب.. الذى رعاه صبيا، وحرص عليه شابا، وذاد عنه وعن دعوته عندما جاءته الرسالة.. وتحمل ما تحمل فى سبيلها وهو الشيخ العجوز.. ويتمنى النبى من الله أن يسلم عمه.. أن يعمر الإيمان قلبه.. ويروى البخارى أن النبى طلب من عمه أن ينطق بالشهادة:

- «قلها يا عم أشهد لك بها عند الله»..

ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فقد نزل قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *